Journal of Humanities and Social Sciences Researches (JHSSR)

ISSN: 2958-3160 (Online)

Color and Gray Hair in the Sermons of the Umayyad and Abbasid Eras

Muhammad Saeed Hussein Mari[1], Khairia Tawfiq Mahmoud[1*]

[1] 1Master's student in the Department of Arabic Language, College of Education for Women, Tikrit University, Tikrit, Iraq.

[*] Corresponding author: Khairia.Tufck2023@st.ta.edu.iq

Received: 20/06/2025 Accepted: 25/07/2025

Abstract

This study explores the symbolic and rhetorical significance of color and gray hair in the sermons of the Umayyad and Abbasid periods. Gray hair is portrayed as a sign of aging, weakness, and the approach of death, often used rhetorically to evoke emotional responses and to express wisdom or vulnerability. Color, on the other hand, functions as an allusive tool in constructing metaphorical imagery and figurative expressions. The study highlights how preachers utilized these symbolic elements to convey religious and social meanings.
Keywords: Gray hair, color, rhetoric, symbolic meaning, Umayyad era, Abbasid era.

اللون والشيب في خطب العصرين الأموي والعباسي

ا.د. محمد سعيد حسين مرعي[1]، م.م خيرية توفيق محمود[1*]

[1]طالبة ماجستير في قسم اللغة العربية، كلية التربية للبنات، جامعة تكريت، العراق

[*]البريد الإلكتروني : Khairia.Tufck2023@st.ta.edu.iq

الملخص

يتناول هذا المبحث دلالة اللون والشيب في خطب العصرين الأموي والعباسي، باعتبارهما عنصرين بلاغيين يحملان أبعادًا رمزية عميقة. يمثل الشيب علامة على التقدم في السن والانكسار، وقرب الأجل، ويستثمر خطابيًا للتأثير الوجداني والتعبير عن الحكمة أو الضعف. كما يظهر اللون بوصفه وسيلة إيحائية في بناء الصور البيانية والتعابير المجازية ويبرز المبحث كيف وظف الخطباء هذه الرموز الإيصال معان دينية واجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الشيب، اللون، الخطابة، الدلالة الرمزية، العصر الأموي، العصر العباسي.

المقدمة ومشكلة البحث:

التمهيد

يعدّ الشيب من الظواهر التي تحمل دلالات رمزية وإنسانية عميقة فضلا عن لونه إذ يعكس في الأدب مشاعر وتجارب متعددة، حيث يمثل الشيب مرحلة من النضج والتغيير في حياة الإنسان. ولطالما كان رمزًا للوقار والحكمة في كثير من النصوص، بينما جاء في نصوص أخرى كعلامة على الفقد ومرور الزمن.

DOI: https://doi.org/10.33687/jhssr.004.03.0493
This is an open access article under the CC-BY-NC-ND license.

وبين الأبيض الذي يرمز إلى الصفاء والوقار، والرمادي الذي يعكس التحولات بين الشباب والشيخوخة، يظل الشيب موضوعًا أدبيًا زاخرًا بالمعاني التي تجسد صراع الإنسان مع الزمن وتقبله لمراحل الحياة المختلفة. فالشيب في الأدب (احتل مساحة لا بأس بها في القصيدة العربية حيث يتحول اللون الأبيض إلى وجهه الميت، فيمسي نذيراً بالعجز والوهن والموت...) [1] فالشيب علامة الفقد والانطفاء حيث تتساقط معه الأوهام كما تتساقط اوراق الخريف.(فالشيب رمز لوني أبيض، وهو رمز نفسي يشير إلى تأخر الزمان والاقتراب من النهاية التي آنت لكنها استعصت) [2]. حيث يرتبط اللون الأبيض بمشاعر الحزن والكآبة وأفول الأشياء، ربما لأنه يجسد الشيب، ذلك الرمز الصامت لمرور الزمن واقتراب النهايات.(فإذا نزل المشيب ذهبت اللذات، ودنت أوقات الممات)[3].ومن هنا جاء الشيب في بعض النصوص الأدبية تعبيراً عن الفقد والأسى، خاصة في الشعر الذي يصور الشيب كعلامة على اقتراب الأجل وانقضاء الشباب، بهذا المعنى، يتجلى لون الشيب في الأدب العربي بين دلالة التجربة والحكمة، وبين إحساس الإنسان بمرور الزمن وأثره على النفس والجسد.

ومن الخطب التي تناولت موضوع الشيب هي حديث الخيار بن أوفى النهدي[4] مع معاوية : (دخلَ الخيارُ بنُ أوفى النهديُّ على معاويةَ، فقال له: يا خيارُ، كيفَ تَجِدُكَ، وما صَنَعَ بِكَ الدَّهْرُ؟ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، صَدَعَ الدَّهْرُ قَناتِي، وأَثْكَلَنِي لَداتِي، وأوْهَى عِمادِي، وشَيَّبَ سَوَادِي، وأسرَعَ في تِلادِي، ولقدْ عِشْتُ زَمنًا أُصْبِي الكِعَابَ، وأسرِي الأصحابَ، وأُجِيدُ الضِّرابَ، فبانَ ذلكَ عنِّي، ودنا الموتُ منِّي، وأنشأ يقولُ:

وَتُصْبِي الكِعَابُ لِمَتِي وَشَمَائِلِي ... كَأَنِّي غُصْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ نَاضِرُ

فَبَانَ شَبَابِي وَاعْتَرَتْنِي رَثِيَّةٌ ... كَأَنِّي قَنَاةٌ أَطْرَتْهَا المَاطِر

أَدِبُّ إِذَا رُمْتُ القِيَامَ كَأَنِّي ... لَدَى المَشْيِ قَرْمٌ قُيِّدَ مُتَقَاصِرُ

وَقَصَّرَ الفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتٌ كِلَاهُمَا ... لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاظِرُ[5]

يستخدم الخيار بن أوفى النهدي في حديثه مع معاوية بن أبي سفيان أسلوبًا بليغاً يجمع بين الوصف الحسي والتصوير المجازي، مما يمنح النص قوةً تعبيرية خاصة. ولعل من أبرز العناصر التي اعتمد عليها في إبراز صورة الشيخوخة دلالة اللون، ولا سيّما اللون الأسود والأبيض، اللذين يشيران إلى مراحل التحول في حياة الإنسان. فعندما يقول "وشيب سوادي" هنا يُبرز التحول الجسدي من الشباب إلى الشيخوخة من خلال تغير لون الشعر، حيث يتحول "السواد" الذي يرمز إلى الحيوية والشباب إلى البياض الذي يشير إلى التقدم في العمر والوهن ، فمرحلة المشيب تُشير إلى اقتراب نهاية عمر الإنسان، وفيها تكثر عليه الأمراض والآلام، ويتحول لون شعره إلى البياض، ويقل شغفه بمتع الحياة وتضعف طاقته ونشاطه[6].هذا الانتقال اللوني يعكس مرور الزمن وتأثيره، وكأن الشيب ليس مجرد تغير في اللون، بل علامة على تبدل الحال وضعف القوة، فاللون هنا دِل على والذبول ولاسيّما اللون الأبيض وللمقارنة بين : الشباب والشيخوخة "ويواصل الخطيب استخدام اللون في التصوير من خلال التشبيه النباتي :"كأني غصن ناعم النبت ناضر" "ناضر تعني الحيوية

([1])علي، إبراهيم محمد، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام :158.

([2])حيرب، حنان ، الليل في القصيدة الأندلسية، (رسالة ماجستير) : ٣٢١.

([3])عمر ، أحمد مختار، اللغة واللون :٢٠٨.

([4])الحموي ،ياقوت ،ينظر:معجم الأدباء، 3: 309_310 . شاعر اسلامي مجيد توفي في خلافة معاوية.

([5])صفوت، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب،العصر الأموي، 2 :390. اللمة: الشعر المجاوز شحمة الأذن/ والأطر والتأطير: عطف الشيء، وتأطر الرمح: تثنى واعوج./ القرم: الفحل.

([6]) ينظر : الشافعي ، الشافعي جلال ، الشباب والشيب في شعر ابن المعتز دراسة موضوعية وفنية، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، ع ٣، مج٥، سنة ٢٠١٨م : ٧٠١.

DOI: https://doi.org/10.33687/jhssr.004.03.0493

This is an open access article under the CC-BY-NC-ND license.

والاخضرار، وهو ما يرتبط بمرحلة الشباب التي وصفها هنا بأنها كانت مشرقة، زاهية، مليئة بالنشاط والحيوية ، لكن حينما يقارن ذلك بصور الشيخوخة في بقية الأبيات، نجد أن اللون الأخضر أو الزاهي الذي يُفهم ضمنيًا من النضارة يتلاشى، وكأن الشيخوخة تسلب الإنسان ألوانه الزاهية، ويتجلى ذلك بوضوح أكبر في قوله:

"وقصـــــر الـفـتـى شـــيـب ومـوت كـلاهـمـا لــه ســـــائـق يســـــعـى بـذاك ونـــاظـر"

يربط الشاعر هنا بين الشيب والموت باعتبارهما مرحلتين متتاليتين، مما يوحي بأن اللون الأبيض لم يعد فقط دلالةً على الكبر، بل على اقتراب النهاية وكأن تحول الشعر إلى الأبيض هو مقدمة للون آخر أكثر حسمًا ،فالأبيض صار على غير ما هو شائع هو اللون الأنسب للتعبير عن الحزن، لأنه يرتبط بالشيب والرحيل[7].إنه لون الفناء والعدم.

ويستخدم الخيار بن أوفى التدرج اللوني من السواد إلى البياض كوسيلة فنية للتعبير عن تبدل حاله بفعل الزمن، فيرسم صورة حية لانتقاله من الشباب إلى الشيخوخة . ويظهر الشيب في النص ليس مجرد علامة جسدية، بل كرمز دال على الانحسار، والذبول، واقتراب الأجل، مما يجعل اللون أداة جوهرية في تشكيل المعنى العميق للنص. ورحيل الشباب وظهور الشيب يدلّ على انتهاء مرحلة الفتوة وبداية مرحلة الكهولة، وهنا يُرثى الشيب لأنه ينذر صاحبه بدنوّ أجله، فالشيب بمثابة نذير الموت ومقدّمته[8]. وعليه، فإن الشيب لا يُعدّ مظهراً من مظاهر التقدّم في السن فحسب، بل هو رسالة وجودية بالغة الدلالة، تنذر بانقضاء زمن الفتوة وحلول أوان التأمل في المصير، فيغدو الشيب قرين الحكمة، ونذير الرحيل، ومفتحا لمرحلة يعمّ فيها الوعي بقصر الحياة وثقل الأثر، ذلك أن الشيب المهيب الكئيب ينذر بدنو غروب الحياة[9]. فرحيل الشباب يبث في النفس رهبةً عميقةً، إذ يحل الشيب مكانه كرمز للفناء والضعف، فيوقظ في أعماقه شعورًا بالخوف من تقلبات الزمن وزحف الشيخوخة الهادئ والموجع.

وقد زخرت بعض النصوص بمواقف تعبّر عن دلالة الشيب وتحوّلات اللون، كما تجلّى ذلك في كلمات لعبد الملك بن مروان(ت86ه)[10]، حيث اختلط المشيب بالحكمة، واتّخذ من تغيّر المظهر مدخلًا للتأمل في المعاني والدلالات: قِيلَ لعبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ: (عَجِلَ عَلَيكَ المَشِيبُ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، فقالَ: "كَيْفَ لا يَعْجَلُ عَلَيَّ، وأنا أَعْرِضُ عَقْلِي على النَّاسِ في كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ).أو قالَ: (شَيَّبَنِي صُعُودُ المَنَابِرِ والخَوْفُ مِنَ اللَّحْنِ)[11].

في هذا النص، يظهر الشيب ليس مجرد علامة جسدية، بل رمز للضغوط والمسؤوليات التي يواجها الحكام وأصحاب المناصب الرفيعة. حيث يتم توظيف اللون الأبيض للشيب ليعكس الإرهاق النفسي والفكري الناتج عن ممارسة السلطة، وهو ما يمنح النص أبعادًا عميقة حول العلاقة بين الحكم والتقدم في العمر، فجاءت دلالة اللون الأبيض (الشيب) كرمز للهموم

([7])ينظر : الغرباوي، إسراء عبد الرضا ، إضا ءات أندلسية(مختارات من الأدب الأندلسي) :133.

([8])ينظر: الحميري ، سؤدد يوسف عبد الرضا علي ، أنسنة الشباب والشيب في الشعر العربي قبل الإسلام، مجلة التراث العلمي العربي، ع ٤٣، ٢٠١٩م :٢٧٣.

([9])اليظي، صالح حسن، ينظر:البحتري بين نقاد عصره :137.

([10])ينظر: الزركلي ، الأعلام ، 4: 165. عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولد سنة 26 هـ (646 م) وتوفي سنة 86 هـ (705 م) في دمشق. هو الخليفة الأموي الخامس، وصف بالحزم والدهاء، وكان من أعاظم خلفاء بني أمية. نشأ في المدينة عالما زاهدا، وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه عام 65 هـ. شهد عهده تعريب الدواوين وصك الدنانير الإسلامية ونقش الحروف العربية.

([11])صفوت، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب،العصر العباسي الأول، 3 :360.

والمسؤولية: (لقد عرف العرب منذ القديم أن الشيب ان حل بالإنسان تنتابه الهموم وتضيق به الدنيا، فيشيب في شبابه)[12]. حين يُقال لعبد الملك بن مروان: "عَجِل عليك المشيب يا أمير المؤمنين"، فالسؤال يحمل استغرابًا من سرعة تحول شعره إلى اللون الأبيض. فيردّ قائلًا: "كيف لا يعجل علي، وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين؟" هنا يربط عبد الملك ظهور الشيب (اللون الأبيض) بالتوتر والضغط الفكري الذي يعيشه كخليفة، حيث يتعرض للنقد العلني ويتحمل مسؤولية كبيرة أمام الناس. وفي مقولته الأخرى: "شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن" هنا يتجلى المعنى بشكل أوضح، فالشيب ليس مجرد تحول لوني، بل انعكاس جسدي للضغوط والتحديات التي تواجهه، خاصة أنه كخليفة مطالب بالتحدث أمام العامة بدون أخطاء، مما يخلق لديه خوفًا مستمرًا لذلك(أن توقد الشيب شكل مصدر شؤم وقلق دائمين للإنسان)[13]. يبدو أن الشيب لا يُنظر إليه فقط كمظهر خارجي، بل كدلالة على نضج العقل وثقل المسؤولية. وهذا يختلف عن النظرة التقليدية للشيب في بعض السياقات الأخرى التي قد تراه علامة ضعف أو تراجع في القوة ، حيث إنّ عبء المنصب هو الذي عجل بظهور الشيب. (اللون الأبيض) كرمز لثقل المسؤولية والضغوط النفسية التي ترافق أصحاب السلطة. ويعكس هذا كيف يمكن للون أن يكون وسيلة تعبير قوية عن التجربة البشرية، حيث يتحول الشيب من مجرد مظهر جسدي إلى شهادة على الصعوبات التي يمر بها الحكام والزعماء.

وجاء ذكر الشيب في خطبة ابن الخطيب لأبنائه حيث قال: (اَلْـحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَرُوْعُهُ الْـحِمَامُ المركوب، إِذَا شَمَّ نَجْمَهُ الْـمَثُقُوْبُ... وَبَعْدُ: فَإِنِّي لَمَّا عَلانِيَ الْمَشِيبُ بِقِمَّتِهِ، وَقَادَنِيَ الْكِبَرُ بِرِمَّتِهِ، وأذكرت الشَّبَابَ... وَكَأَنِّي بِشَبَابِكُمْ قَدْ شَاخَ، وبأرحلكم قَدْ أَنَاخَ، وبنشاطكم قَدْ كَسِلَ، وَاسْتُبْدِلَ الصَّابُ مِنَ الْعَسَلِ، وَنُصُولُ الشَّيْبِ تُرَوِّعُ بَأْسَلَ، لَا بَلِ السَّامُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ قَدْ نَسَلَ.)[14].

في هذه المقاطع المتتابعة من الخطبة، نجد أن الخطيب يستخدم صورة الشيب لا بوصفه مجرد مظهر جسدي للكبر، بل كرمز لمرحلة وجودية عميقة ومفصلية في حياة الإنسان. ويتجلى ذلك من خلال بناء بلاغي دقيق يستثمر اللون في سياقه الرمزي. ففي عبارة" لَمَّا عَلانِيَ الْمَشِيبُ بِقِمَّتِهِ" كلمة المشيب تحضر هنا كمظهر لونيّ واضح البياض الذي يغزو السواد لكنه لا يُقدَّم كعار أو ضعف، بل يتقدَّم في الجملة كحدث جلل، وقد أُضيفت له "قِمَّته" لتعطي إيحاءً بالسيادة والهيمنة و كأنّ المشيب ليس شيئًا عارضًا، بل كائن اعتلى الرأس، وتربّع على العرش ،اللون هنا لا يصف الشكل فقط، بل يصف الزمن والخبرة والعمر الطويل، مما يمنحه مهابة أكثر من أن يكون موضع ضعف. أما في عبارة "وَقَادَنِيَ الْكِبَرُ بِرِمَّتِهِ" فنلاحظ هنا أن الكِبَر وهو المرحلة التي يقترن بها الشيب لا يُصوَّر كعائق بل كقائد، وهذا تعظيم ضمني لما يحمله الشيب من دلالة على الحكمة والنضج والتجربة. فاللون الأبيض يتحول من رمز للذبول إلى دليلٍ على القيادة والتوجيه. (فالشيب دليل الفناء وقطع اللذات؛ لأنه رائد الموت ونذيره، وأول مواعد الفناء ، وأنه يوهن القوة ويضعف الهمة ويشوه الخلقة)[15]. وفي عبارة" نُصُولُ الشَّيْبِ تُرَوِّعُ بَأْسَلَ" هذه الجملة بالغة القوة في تصوير الشيب لا كحالة جسدية، بل كقوة تُرعب الأشداء. فالنُّصول التي يُشَبَّه بها الشيب، ليست ضعيفة ولا خامدة، بل "تروّع باسلا"، أي تُفزع الأبطال والفرسان، وهو تصوير مدهش للبياض كقوة رمزية تعلو فوق القوة الجسدية . لذلك اتفق الشعراء العرب من سالف العصور على وصف هذه المرحلة بالمزعجة لأنها

([12])منصور ،محمد ياسر ،الشيب والمشيب في الشعر العربي ، مجلة الرافد، مجلة الكترونية ثقافية،الشارقة:2022،جون:2 ZTmxVejFCaa0nVWW9https://share.google/

([13])الفلاحي ، أحمد علي إبراهيم ، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة اجتماعية نفسية : 140.

([14])صفوت، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب،العصرالعباسي الأول، 3 : 188. من شام البرق: نظر إليه أين يقصد، وأين يمطر/الغمة: أعلى كل شيء./الرمة بالضم ويكسر: قطعة من حبل./ الصاب: عصارة شجر مر./النصول جمع نصل: وهو حديدة الرمح والسيف. والأسل: الرماح/السام: الموت: والحدب: ما ارتفع من الأرض، ونسل كضرب: أسرع

([15])ينظر:بلاوي ،رسول _ آباد مرضية ، دلالات الألوان في شعر يحيى السماوي :19.

DOI: https://doi.org/10.33687/jhssr.004.03.0493
This is an open access article under the CC-BY-NC-ND license.

إيذان بأفول زمن الشباب وميلاد زمن المشيب الذي يمهد لنهاية وشيكة ...[16] فاللون الأبيض في الخطبة يُحمَّل دلالة الهيبة، والرهبة، والمهابة، وهي صفات تقلب المعنى التقليدي للشيب من ضعف إلى سلطة، التحول من "العسل" إلى "الصاب" قوله: "واستُبدل الصاب من العسل" يظهر فيه تدرّج دلالي، فالعسل رمز الحلاوة والشباب، أما الصاب فهو دال على المشقة أو التحول الحاد ولكنه لا يطرحه كشكوى بل كحقيقة تقود نحو التأمل والتوازن، وهذا أيضًا ينسجم مع فكرة الشيب كعلامة تحول لا تفتقد قيمتها، فاللون في هذا النص، وخاصة اللون الأبيض المرتبط بالشيب، لم يُوظَّف ليرمز إلى الذبول أو النهاية، بل بهيبة معنوية ووقار. الشيب هنا ليس علامة أفول، بل ذروة النضج، ورمز الحكمة والقوة الصامتة. إنه يخيف الأبطال، ويقود الإنسان نحو الرؤية الأوضح لما تبقّى من الحياة. لقد استطاع الخطيب تحويل اللون من إشارة بيولوجية إلى صورة بيانية ذات طاقة رمزية عالية.

وكذلك من الأمثلة التي تناولت رمزية اللون ودلالة الشيب، خطبة لأعرابي يعض أخاه، يكشف عن أبعاد دلالية عميقة: وعَظَ أعرابيٌّ أخًا لهُ أفسَدَ مالَهُ في الشَّرَابِ، فقالَ: (لا الدَّهْرُ يَعِظُكَ، ولا الأيَّامُ تُنْذِرُكَ، ولا الشَّيْبُ يَزْجُرُكَ...)[17].

هنا يستخدم الأعرابي الشيب كرمز للزجر والتحذير من التمادي في اللهو والعبث، حيث يضعه في سياق العظة والتجربة الزمنية، مما يجعله علامة على ضرورة التعقل والابتعاد عن الإسراف والانحراف، حين يقول الأعرابي لأخيه: "لا الدهر يعظك، ولا الأيام تنذرك، ولا الشيب يزجرك "هنا، يتم ذكر الدهر، الأيام، والشيب في سياق متصل، مما يجعل الشيب مرتبطًا مباشرة بالزمن والتجارب التي يحملها. والشيب (اللون الأبيض) هنا هو علامة نضوج كان يجب أن تكون كافية لزجر الإنسان عن الاستمرار في الخطأ، لكنه في هذا السياق لم يؤدِّ دوره، مما يعكس حالة العناد والتمرد على قوانين الحياة فالأبيض في الشعر يُفترض أن يكون دليلاً على التعقل والحكمة، لكنه هنا لم يؤثر في الشخص المعني بالوعظ. هذا التناقض بين "الشيب" الذي يفترض أن يكون رادعًا، وبين استمرار الإنسان في الخطأ، يؤكد أن النضج الجسدي لا يعني بالضرورة نضجًا فكريًا أو أخلاقيًا. وحين يقول الأعرابي "ولا الشيب يزجرك"، فهو يشير إلى أن الشيب هو آخر المراحل التي ينبغي أن تدفع الإنسان إلى التوبة والتعقل. والقرآن الكريم صور هذه الأطوار والمراحل خير تصوير وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[18]. (فالشيب دلالة وقار كما أنه ينقل الإنسان من مرحلة اللهو إلى مرحلة الاتزان والرجاحة، وأن من يلهو في فترة شيبه هو إنسان متصاب وعابث)[19]. في هذا النص، يرمز الشيب (اللون الأبيض) إلى آخر نداء للتوبة والتعقل، لكن الشخص المخاطب يتجاهله، مما يعكس حالة العناد وعدم التعلم من التجارب. يعزز اللون الأبيض هنا فكرة أن الحكمة لا تأتي بالضرورة مع التقدم في العمر، وأن بعض الأشخاص يظلون أسرى لغرائزهم على الرغم من تغير مظاهرهم،(فاللون الابيض يرمز أيضا إلى التشاؤم و اقتراب من الخروج من الدنيا لارتباطه بلون الشيب)[20]. فالشيب نذير الفناء ولونه شاهد على مسيرة العمر، (والبياض موت وفناء وخوف وقهر وضعف وسكينة واستسلام، ومع ذلك يحاول الإنسان أن يقاوم، فالإحساس بالشيب زمن حاضر ، والشباب إحساس بالماضي)[21].

([16])الطائي، فواز أحمد محمد صالح، الحياة والموت في شعر عصر الطوائف بالأندلس :22.

([17])صفوت، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب،العصر العباسي الأول 3 :247.

([18])الروم :الآية54.

([19])شحادة، نصرة محمد محمود ،اللون ودلالاته في شعر البحتري، (رسالة ماجستير) :20.

([20])الزواهرة، ظاهر محمد هازع، اللون ودلالاته في الشعر : 77.

([21])حسان، د .خالد عبد العزيز، الثنائيات الضدية في شعر بشار بن برد، دراسة تأويلية :١٩١.

فيبرز اللون الأبيض حين يقترن بالشيب، إذ يتحوّل الشعر الأبيض إلى مرآة للزمن، وصوت صامت يروي حكاية العمر، فالشيب كثيرًا ما يكون رمزا للحكمة لكنه في الوقت نفسه جرس إنذار يقرع باب الموت وفقدان الشباب

ومن الخطب التي تناولت دلالة اللون والشيب، ما ورد عن أحد الأعراب في قوله البليغ، حيثَ قالَ : (وَقَد كُنتُ أُنكِرُ البَيضاءَ، فَصِرتُ أُنكِرُ السَّوداءَ، فيا خَيرَ مَبدولٍ، وياء شَرَّ بَدَلٍ)[22].

في هذا القول العفوي البليغ من الأعرابي: "لقد كنتُ أُنكر البيضاء، فصرتُ أُنكر السوداء، فيا خيرَ مبدول، وياء شرَّ بدل" نجد أن اللون ليس مجرد صفة شكلية، بل يحمل ثقلًا وجدانيًا وتجربة إنسانية عميقة، البيضاء هنا ترمز إلى الشيب، إلى خيوط الزمن التي تبدأ بالتسلل إلى الرأس، وكان الأعرابي -ككثير من الناس- في أول أمره ينكرها، ربما لأنها كانت تُذكّره بالضعف، بالفناء، أو بانتهاء مرحلة الشباب الصاخبة، لكنه مع الزمن تغيّر، لا فقط في مظهره، بل في نظرته للحياة. أصبح يُنكر السوداء، رمز الشباب، لا لأنها شر، بل لأنها كانت -كما يفهم من السياق- مرتبطة بالجهل، أو الطيش، أو غرور القوة، فهو الآن يرى في الشيب وقارًا، وعيًا وحكمة، وربما صفاءً، وقد جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكن بدعائك رَبِّ شَقِيًّا﴾[23]. اما في العبارة الأخيرة: "فيا خيرَ مبدول، وياء شرَّ بدل" تحمل اعترافًا مريرًا وجميلًا في أن ما ظنّه خيرًا في الماضي (السواد) كان في الحقيقة شرًا حين قارنَه بالحكمة التي جاء بها الشيب، وما ظنّه شرًا (البياض) أصبح في عينه خيرًا كبيرًا،وقيل قديماً (الشيب حِلية العقل، وشِيمة الوقار ، والشيب زبدةٌ مخَضتَها الأيام، وفِضّة سكبتها التجارب...)[24]. هكذا ينقلب المعنى حين ينضج الإنسان، فاللون هنا ليس مجرد لون شعر، بل هو لون للروح، للوعي، لمرحلة من الحياة، فالشيب أكثر من مجرد تغيير بيولوجي، إنه لون الزمن الذي يترك أثره على الإنسان وفي بعض الثقافات، يُنظر إلى الشيب كعلامة على الفناء، لكنه في جوهره رمزية للنضج والحكمة. إنه يُعبّر عن تحول الذات في مواجهة الزمن، مما يجعل من اللون الأبيض أو الرمادي لغة صامتة لقصص الحياة، بين القوة والانكسار، والأمل واليأس. الشيب ليس النهاية، بل بداية فصل جديد، حيث يصبح الإنسان أكثر قربًا من فهم ذاته وعالمه.

وفي فضاء النصوص التي لامست ثنائية اللون والشيب، ما جاء عنْ محمدِ بنِ كِناسَةَ[25] قالَ: (أخبَرَني بعضُ فُصَحاءِ أعرابِ طي قالَ: بعَثَ قَوْمٌ رائِدًا. فقالوا: ما وَراءَكَ؟ فقالَ: عُشْبٌ وتَعَاشِيبُ، وكَمْأَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ شِيبٌ)[26].

في هذا النص القصير، يُوظَّف اللون بطريقة رمزية تعكس طبيعة المكان ووصف الأرض من خلال لون الشيب، وهو ما يمنح الوصف بعدًا دلاليًا يتجاوز مجرد الإخبار عن طبيعة الأرض إلى تقديم رؤية عميقة للحالة العامة للمكان وربما الزمن نفسه "فيستخدم الرائد في نهاية وصفه عبارة: "وكمأة متفرقة شيب" وهنا تشير كلمة "شيب" إلى اللون الأبيض الذي يميز بعض أنواع الكمأة عندما تكون قديمة أو ناضجة. لكن هذا الوصف يتعدى مجرد الإشارة إلى اللون، إذ يحمل أبعادًا رمزية:

([22]) صفوت، أحمد زكي ،جمهرة خطب العرب،العصر العباسي الأول، 3 :278.

([23])سورة مريم :الآية 4

([24])ربه، أحمد بن محمد ابن عبد، العقد الفريد:211.

([25])ينظر : الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ،سير أعلام النبلاء : 508_509. ابن كناسة، واسمه الكامل محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى بن عبد الله بن خليفة بن زهير بن نضلة بن معاوية بن مازن بن كعب بن ذؤيبة بن أسامة بن نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن داود بن أسد بن خزيمة الأسدي الكوفي، يعرف بالشهرة باسم "ابن كناسة"، وكنيته أبو يحيى، وقيل أبو عبد الله.ولد في الكوفة سنة 123هـ، ونشأ في بيئة علمية قريبة من الزهد والورع، وكان ابن أخت العارف الزاهد إبراهيم بن أدهم اشتهر في الكوفة بعلمه وروايته، وتوفي فيها سنة 207هـ، وقيل سنة 209هـ.

([26])صفوت، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب،العصر العباسي الأول، 3 :316.

DOI: https://doi.org/10.33687/jhssr.004.03.0493
This is an open access article under the CC-BY-NC-ND license.

"شيب" كإشارة إلى النضج والتقدم في العمر: الكمأة المتفرقة التي اتخذت لون الشيب ترمز إلى خصوبة الأرض ومرور الزمن عليها، مما قد يُوحي بأن هذه الأرض لم تعد في ذروة خصوبتها، بل ربما تمرّ بمرحلة من الهدوء أو الشحّ النسبي. "شيب" كعلامة على القلة والفرقة: الشيب عادةً يظهر في الشعر بشكل متفرق في البداية، وهنا يشبه الرائد انتشار الكمأة بظهور الشيب، في إشارة إلى أنها ليست كثيفة، بل متفرقة في أماكن متباعدة، مما قد يعني أن الأرض ليست وفيرة العطايا ،ويستخدم النص اللون الأبيض المرتبط بالشيب كمؤشر على النضج والتغير، حيث يعكس كيفية تحول الأرض بمرور الوقت. كما أن الاختلاف بين اللونين الأخضر (العشب) والأبيض (الشيب) يعزز التفاوت بين الحيوية والقدم، مما يجعل الصورة أكثر عمقًا وثراءً في دلالاتها.

وهكذا يتضح أن اللون والشيب لم يكونا مجرد ظاهرتين ماديتين في الخطاب العربي القديم، بل حملا دلالات رمزية ومعنوية عميقة، تتقاطع مع مفاهيم الزمن، والهيبة، والضعف، والتجربة، بل وحتى الموت. فقد ارتبط الشيب في كثير من النصوص بأفول القوة ومجيء الوقار، بينما كان اللون—سواء الأبيض أو الأسود أو الأحمر—أداة تعبير عن مشاعر متباينة تتراوح بين الفخر والخوف، والحياة والموت، والبهجة والحزن. ومن خلال هذا البحث، تبيّن أن اللغة لا تنفصل عن الثقافة، بل تتداخل معها لتنتج خطابًا رمزيًا يعكس رؤية الإنسان العربي للعالم، في زمنٍ كانت فيه التفاصيل اللونية تحيل إلى معانٍ تتجاوز حدود الحواس لتصل إلى أعماق الوجدان.

الخاتمة

1. شكّل الشيب رمزًا واضحًا للتقدّم في العمر، والانكسار، وقرب نهاية الحياة، كما عُدّ مظهرًا من مظاهر الوقار والخبرة.
2. تم توظيف الشيب في الخطب للدلالة على الزهد، والتذكير بالموت، والتحوّل من مرحلة القوة إلى الضعف.
3. حمل اللون، في سياق الخطب، دلالات متعدّدة ترتبط بالحالة النفسية والاجتماعية للمتحدث أو المخاطب.
4. أظهرت الخطب وعيًا بأثر الشيب والألوان في تحريك المستمعين وتوجيه نظرتهم للحياة والمصير.
5. ساهم حضور الشيب واللون في ترسيخ القيم الأخلاقية والدينية لدى المتلقّين، وربط الواقع بالمصير الإنساني.

المصادر:

- بلاوي ،رسول _ آباد مرضية ، دلالات الألوان في شعر يحيى السماوي ، اضاءات نقدية(مجلة فصلية محكمة)، العدد 8، 2012م.
- حسان، د.خالد عبد العزيز، الثنائيات الضدية في شعر بشار بن برد_ دراسة تأويلية_ دار الخليج للنشر والتوزيع،ط1، 2023م .
- الحموي ،ياقوت ، معجم الأدباء، ج3،دار الغرب الإسلامي ،بيروت_لبنان،ط1، 1993م.
- الحميري ، سؤدد يوسف عبد الرضا علي ، أنسنة الشباب والشيب في الشعر العربي قبل الإسلام، مجلة التراث العلمي العربي، ع ٤٣، ٢٠١٩م
- حيرب، حنان ، الليل في القصيدة الأندلسية، (رسالة ماجستير) ، إشراف د.عمر موسى باشا،جامعة دمشق،1991_1992م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ،سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة،ط1، 1403_1982م.
- ربه، أحمد بن محمد ابن عبد، العقد الفريد، المطبعة الزاهرة :مصر، د.ط، 1884م.
- الزركلي ، خير الدين، الأعلام ، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م
- الزواهرة، ظاهر محمد هازع، اللون ودلالاته في الشعر دار الحامد للنشر والتوزيع،د.ط، 2008م.
- الشافعي ، الشافعي جلال ، الشباب والشيب في شعر ابن المعتز دراسة موضوعية وفنية، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، ع ٣، مج٥، سنة ٢٠١٨م .

- شحادة، نصرة محمد محمود ،اللون ودلالاته في شعر البحتري، (رسالة ماجستير) ، إشراف د.حسام التميمي ،جامعة الحليل ،كلية الدراسات العليا، 2013م.
- صفوت، أحمد زكي،جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت_لبنان،ط1، 1352هـ_1933م.
- الطائي، د. فواز أحمد محمد صالح، الحياة والموت في شعر عصر الطوائف بالأندلس، دار غيداء للنشر والتوزيع ،ط1، 2020م.
- علي، إبراهيم محمد، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام (قراءة ميثولوجية)، دار جروس،جامعة ميتشيغان،د.ط، 2001م.
- عمر ، أحمد مختار، اللغة واللون ، عالم الكتب للنشر والتوزيع القاهرة ،ط 1: 1982،ط2 1997.
- الغرباوي، إسراء عبد الرضا ، إضا ءات أندلسية(مختارات من الأدب الأندلسي)، دار الخليج للنشر والتوزيع، د.ط ،2020م.
- الفلاحي ، د. أحمد علي إبراهيم ، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة اجتماعية نفسية ، كلية العلوم الاسلامية في الفلوجة جامعة الأنبار، دار غيداء للنشر والتوزيع ،ط1، 1434ه_2013م.
- منصور ،محمد ياسر ،الشيب والمشيب في الشعر العربي ، مجلة الرافد، مجلة الكترونية ثقافية،الشارقة:2022،جون:2 ZTmxVejFCaa0nVWW9https://share.google/
- اليظي، صالح حسن، البحتري بين نقاد عصره ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع،ط1، 1982م.

DOI: https://doi.org/10.33687/jhssr.004.03.0493

This is an open access article under the CC-BY-NC-ND license.